دانتي أليجييري

الكوميديا الإلهية

المطهر



ترجمة

د. عبد الله عبد العاطي النجار

عصام السيد علي



دانتي أليجييري

الكوميديا الإلهية "المطهر"

تحفة أثرية خالدة، وعمل أدبي هو الأضخم والأعظم في تاريخ الأدب الإيطالي، وواحدة من أعظم مائة كتاب في تاريخ البشرية، وأكثر الكتب طباعة ونشرا وترجمة بعد الكتب السماوية المقدسة في العالم... إنها "الكوميديا الإلهية".

رحلة رمزية فريدة عبر عوالم أُخروية قام بها أعظم كتاب القرون الوسطى قاطبة "دانتي أليجييري" لإنقاذ روحه بعد أن تاه في غابة مظلمة، رمز الحياة الآثمة، فيقوده "فيرجيليو"، رمز العقل، نحو "الجحيم" و"المطهر" ثم تقوده "بياتريتشي"، رمز الإيمان، نحو الفردوس... إنها رحلة طويلة ومضطربة صوب المعرفة والإيمان تعج بالرموز التي أكسبتها إبهاما وتعقيدا وبريقا في عيون القراء والنقاد والمفسرين.

نقل البشرية جمعاء من حالة البؤس والشقاء إلى حالة السعادة والهناء هو أحد مآرب كتابنا هذا حسبما ورد على لسان كاتبه من خلال الغوص في أعماق التاريخ وسرد التجارب الحياتية الثرية، وتصنيف البشر طبقا لأعمالهم في دنياهم ما بين جهنم ومطهر وفردوس، ومن خلال ما احتواه العمل من فلسفة وحكمة وأخلاق وعاطفة.

قوة البناء ومتانة الأسلوب وترابط المعاني سمات تنفرد بها هذه الملحمة دون غيرها.



ISBN 978-9948-39-890-5



مقدمة المترجم

من "الجحيم" وحده اتضح جليا أن الكوميديا تتميز بضخامة البناء واتساع المدى، وغزارة المعلومات، وصورها المتنوعة، وألوانها الرائعة، ونغماتها العذبة، فهي تعبر عن "دانتي" نفسه، وتعتبر الكوميديا بمثابة مذكراته الشخصية والتي تسجل تفاصيل تاريخية، فتعد أفضل مصدر لوصف حياته.

نجد فكرة الميزان لأعمال البشر عند الموت ماثلة في ديانة المصريين القدماء، فعندهم "أوزوريس"[1] الذي يزن أعمال الناس، وينال كلٌ منهم الجزاء العادل، وفي ديانة الفُرس نجد جسر الحساب الذي يمتد فوق جهنم، ويتسع للنفوس الطيبة ويضيق للأشرار. وفي التراث اليوناني تكلم "فيثاغورس"[2] قبل الميلاد عن تطهير الروح بالدراسة والتأمل. وفي بعض طبعات التوراة نجد إشارات إلى الفكرة التي تعبر عن احتمال زوال الخطيئة عند الموت، بالصلوات والابتهالات. وفي "إنجيل متَّى" إشارات إلى فكرة التطهير، وإلي ما يُغفر وما لا يُغفر من الخطايا،

1. إله البعث والحساب وهو رئيس محكمة الموتى عند قدماء المصريين، من آلهة التاسوع المقدس الرئيسي في الديانة المصرية القديمة. طبقا للأسطورة الدينية المصرية القديمة، كان "أوزوريس" أخا لـ"إيزيس" و"نيفتيس" و"ست"، وتزوج من "إيزيس".

2. يذهب "فيثاغورس" إلى أن العالم عبارة عن أعداد رياضية، كما أن الموجودات عبارة عن أعداد، وبالتالي فالعالم عنده عدد ونغم. تتسم الفيثاغورية بأنها مذهب ديني عميق الرؤية والشعور. كانت فلسفة "فيثاغورس" تدعو إلى الإصلاح ومكارم الأخلاق وطهارة النفس وسموها عن طريق الانصراف إلى الحكمة والعلم والترفع عن الدنيا.

ووردت في الرسالة الثانية[1] للقديس "بولس" إلى أهل "كورنثوس"[2] إشارة اختطافه إلى السماء الثالثة. وقال القديس "أوغسطين"[3] في مدينة الله[4] في القرن الخامس بأن المطهر امتداد للتطهر الروحي، وأن التطهير يتم أثناء الحياة وبعدها. فرّق القديس "سيزاريوس الأرليسي" في القرن السادس، بين الكبائر التي تؤدي للولوج في جهنم، وبين الصغائر التي يمكن للإنسان أن يتطهر منها بأداء الأعمال الصالحة في الحياة الدنيا، وتكلم "أوين روي أُو نايل"[5] الفارس الإيرلندي، عن قصة

1. إحدى رسائل العهد الجديد التي تنسب إلى الرسول "بولس"، وهي موجهة منه ومن "تيموثاوس" إلى كنيسة "كورنثوس" وإلى جميع المسيحيين المقيمين في منطقة "آخائية"، ويعتقد أنها كتبت في فترة قريبة من كتابة الرسالة الأولى إلى أهل "كورنثوس" أي ما بين 55 م إلى 60 م، ومن المحتمل أنها قد كتبت في "فيلبي" أو في "تسالونيكي" في اليونان. تركز الرسالة على ما في نفس الرسول "بولس" من محبة واهتمام تجاه كنيسة "كورنثوس"، ولفت انتباه المؤمنين لقضية المعلمين الكاذبة كما يصفهم والذين يتظاهرون بأنهم رسل للمسيح لتحقيق غايات معينة، ثم يدافع "بولس" عن نفسه وعن شرعيته كرسول تعرض لعذابات كثيرة في سبيل إيمانه.

2. عاصمة مقاطعة "آخائية" في بلاد اليونان وكانت من المدن المشهورة. كان محيط المدينة خمسة أميال ويوجد إلى جنوبها مرتفع شاهق علوه 2000 قدم سمي أكمة "كورنثوس". وكان على قمة هذه الأكمة هيكل لـ"أفروديتي" إلهة الحب. وكانت لـ"كورنثوس" تجارة متسعة حتى أصبحت مركزًا للغنى والترفه والعلم بل وزينة بلاد اليونان. ولكنها اشتهرت أيضًا بالخلاعة حتى أصبحت مضربًا للمثل في ذلك وصار إذا قالوا: "عاش فلان في كورنثوس" فإنما كانوا يعنون بذلك أنه خالع العذار فاجر، وإذا قالوا "امرأة كورنثية" فإنهم كانوا يقصدون بذلك أنها سيئة الأدب والسيرة.

3. (Aurelius Augustinus Hipponensis)(354-430) أعظم آباء الكنيسة، ودكتور للكنيسة الكاثوليكيه. يعتبره الكاثوليك ثاني أهم شخصية أثرت في الفكر المسيحي بعد القديس "بطرس". تأثر بكثير من التيارات الفكريه في عصره، وانتهى بالإيمان بالمسيحية، وحكى عن تجربته في كتابه الشيق "الاعترافات". كان يؤمن بالجبر وبأن تاريخ البشر عبارة عن صراع بين مملكة الرب ومملكة الدنيا. دافع بقوة عن روحانية المسيحيه.

4. المقصود هنا مدينة "القدس".

5. (Owen Roe O'Neill)(1585-1649) كان جنديا وفارسا في القرن السابع عشر. وهو أحد أفرد عائلة "نايل" الأكثر شهرة في أولتسر "Ulster" بأيرلندا. قضى معظم سنوات خدمته في الجيش الأسباني مقاتلا في حرب الثمانية سنوات ضد الألمان في "فلاندرز". بعد التمرد الأيرلندي في عام 1641، عاد وتولى قيادة الجيش في "أولستر".

رحلة إلى العالم الآخر، رأى فيها جسرا ضيقا، فوق بركة من الكبريت الآني، والذي يجتازه الصالحون ليصلون إلى الفردوس. كما وصف أيضا عذاب أهل النار والمتطهرين.

ظهرت فكرة المطهر في مجمع "ليون" الديني الثاني[1] (1274-1272)، وتأكدت بعد زمن "دانتي"، في "مجمع فلورنسا الديني"[2] عام 1439، وتشجعت الكنيسة الكاثوليكية على إقامة الصلوات الجامعة وشراء صكوك الغفران، وتطهير نفوس الآثمين حتى يبلغوا مراتب السعادة الأبدية. كما ظهرت فكرة الميزان في آثار الفن التشكيلي القوطى، وفي الحفر البارز وفي الصور التي تجلّت في ميخائيل ممسكا بالميزان.

أما عن التراث الإسلامي فنجده مليء بصور متنوعة عن مرحلة ما بعد الحياة الدنيا، فنجد القرآن الكريم، وحادثتي الإسراء والمعراج النبويتين، وكُتب الحديث الشريف والتفسير والتصوف وأيضا الأدب، تتناول مرحلة الدار الآخرة، بكل ما فيها من درجات. علاوة على ذلك، نجد الإسلام تحدث عن الميزان الذي يزن أعمال البشر، وبعد الحساب

1. يعتبر المجمع المسكوني الرابع عشر في الكنيسة الكاثوليكية. عقد في "ليون" في جنوب فرنسا. ترأسه البابا "جريجوري العاشر"، وناقش قضايا منها إعادة الوحدة مع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، بعد أن أبدى الإمبراطور البيزنطي "ميخائيل الثامن" رغبة في ذلك. عقد المجمع ست دورات، وأصدر 31 وثيقة أو بيان، حول السلام، والوحدة الكنسية، وتنقيح قانون الإيمان الذي صيغ في "نيقية"، وطرق انتخاب البابا، فكان بذلك بداية تنظيم المجمع المغلق بالشكل المعروف عليه اليوم. رخص المجمع أيضًا للرهبنتين الدومينيكانية، والفرنشيسكانية.

2. المجمع المسكوني السابع عشر في الكنيسة الكاثوليكية. عقد في مدينة "فلورنسا" الإيطالية. حضره ممثلون عن الكنائس المسيحية الشرقية المنفصلة عن روما، لمناقشة قضية وحدة المسيحيين، مع صعود الدولة العثمانية وسقوط القسطنطينية. وخلص إلى إعلان التوافق حول عدد من القضايا الخلافية، وختم بإعلان بيان في الوحدة، غير أنها لم تدخل حيّز التطبيق بمعنى الوحدة الشاملة بين المسيحيين. ناقش المجمع أيضًا، عدة قضايا لاهوتية أخرى مثل موضوع انبثاق الروح القدس، وتنظيم الأسرار السبعة المقدسة، وطرق منحها.

يلقى كل فرد نتيجة أفعاله، وهناك "جهنم الجوانية"، وهناك "جهنم البرانية"[1] للتكفير عن الذنوب. ذكر الإسلام أن الصراط[2] لمن لا يدخلون النار، وعليه يعبرون ويكفرون عن الذنوب، ولن يجوزه أحد حتى يُسأل عن أسس الدين في سبع قناطر[3] وورد أنه على الصراط ثلاث شجرات[4] يتطلع إليها المؤمنون. وورد أن سرعة العابرين عليه

1. قال النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ فِي جَهَنَّمَ بَابَيْنِ أَحَدُهُمَا يُسَمَّى الْجُوَّانِيَّةَ، وَالآخَرُ يُسَمَّى الْبَرَّانِيَّةَ فَأَمَّا الْجُوَّانِيَّةُ فَالَّتِي لا يَخْرُجُ مِنْهَا أَحَدٌ، وَأَمَّا الْبَرَّانِيَّةُ فَالَّتِي يُعَذِّبُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهَا أَهْلَ الذُّنُوبِ الْمُوجِبَاتِ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ ثُمَّ يَأْذَنُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْمَلائِكَةِ وَالرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ وَلِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، فَيَشْفَعُونَ لَهُمْ فَيَخْرُجُونَ مِنْهَا وَهُمْ فَحْمٌ، فَيُلْقَوْنَ عَلَى شَطِّ النَّهَرِ فِي الْجَنَّةِ يُسَمَّى نَهَرَ الْحَيَوَانِ فَيُنْضَحُ عَلَيْهِمْ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي الْحَمِيلِ فَإِذَا اسْتَوَتْ أَجْسَادُهُمْ قِيلَ: ادْخُلُوا النَّهَر، فَيَدْخُلُونَ فَيَشْرَبُونَ مِنْهُ وَيَغْتَسِلُونَ فَيَخْرُجُونَ، فَيُقَالُ لَهُمُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ".

2. وفي رواية قال أبو سعيد الخدري: [بلغني أن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف] وفي رواية [أرق من الشعر] رواها مسلم.

3. روي عن بعض أهل العلم أنه قال: لن يجوز أحد الصراط حتى يسأل في سبع قناطر أما القنطرة الأولى: فيسأل عن الإيمان بالله وهي شهادة أن لا إله إلا الله فإن جاء بها مخلصا جاز ثم يسأل على القنطرة الثانية عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز ثم يسأل على القنطرة الثالثة عن صوم شهر رمضان فإن جاء به تاما جاز ثم يسأل على القنطرة الرابعة عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز ثم يسأل في الخامسة عن الحج والعمرة فإن جاء بهما تامتين جاز، ثم يسأل في القنطرة السادسة عن الغسل والوضوء، فإن جاء بهما تامين جاز، ثم يسأل في السابعة وليس في القناطر أصعب منها فيسأل عن مظالم الناس.

4. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ (ص) قَالَ: "لَيَمُرُّ النَّاسُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ وَعَلَيْهِ حَسَكٌ، وَكَلالِيبُ، وَخَطَاطِيفُ تَخْطَفُ النَّاسَ يَمِينًا وَشِمَالا، وَبِجَنْبَتَيْهِ مَلائِكَةٌ، يَقُولُون: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ الرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ الْفَرَسِ الْمُجْرَى، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْعَى سَعْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْبُو حَبْوًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا، فَأَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَلا يَمُوتُونَ، وَلا يَحْيَوْنَ، وَأَمَّا أُنَاسٌ، فَيُؤْخَذُونَ بِذُنُوبٍ وَخَطَايَا، فَيُحْرَقُونَ، فَيَكُونُونَ فَحْمًا، ثُمَّ يُؤْذَنُ فِي الشَّفَاعَةِ، فَيُؤْخَذُونَ ضِبَارَاتٍ ضِبَارَاتٍ، فَيُقْذَفُونَ عَلَى نَهَرٍ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ"، قَالَ (ص): "أَمَا رَأَيْتُمُ الصَّبْغَاءَ شَجَرَةً تَنْبُتُ فِي الْفَضَاءِ؟ فَيَكُونُ مِنْ آخِرِ مَنَ أُخْرِجَ مِنَ النَّارِ رَجُلٌ عَلَى شَفَتِهَا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، صَرِّفْ وَجْهِي عَنْهَا، فَيَقُولُ: عَهْدَكَ وَذِمَّتَكَ لا تَسْأَلْنِي غَيْرَهَا، قَالَ: وَعَلَى الصِّرَاطِ ثَلاثُ شَجَرَاتٍ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، حَوِّلْنِي إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ آكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكُونُ فِي ظِلِّهَا، فَيَقُولُ: عَهْدَكَ وَذِمَّتَكَ لا تَسْأَلْنِي شَيْئًا غَيْرَهَا، قَالَ: ثُمَّ يَرَى أُخْرَى أَحْسَنَ مِنْهَا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، حَوِّلْنِي إِلَى هَذِهِ آكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا، وَأَكُونُ فِي ظِلِّهَا، قَالَ: فَيَقُولُ: عَهْدَكَ وَذِمَّتَكَ لا تَسْأَلْنِي غَيْرَهَا،

متفاوتة[1]؛ كما تحدث ديننا الحنيف أيضا عن الأعراف[2] وهو سور بين جهنم والجنة، وأن أصحاب الأعراف هم من استوت حسناتهم وسيئاتهم، فيقفون علي السور حتى يقضي الله بين الناس. كما ورد الحديث عن البرزخ[3] وتطهيره للذنوب.

هناك اقتراب بين الجحيم والمطهر نوعا ما، فيما يخص آلام المعاقبين، ومع هذا فهناك خلاف أصيل بينهما، فمرتكبي الخطايا الذين لم يتوبوا عنها مكانهم في جهنم (الجحيم) لا يخرجون منها، في حين أن التائبين يلقون عذابا مؤقتا. مكان المطهر هو بين جهنم والجنة، تشع الجنة فيها لتصبح آمالا للتائبين، وتتطلع إليها الأرواح التائبة.

الآثمون في جهنم معترفون بذنبهم، غير تائبين عنه، أما في المطهر فهم نادمون، يقبلون بقضاء الله، يرجون رحمته. جهنم مظلمة، منعزلة، بها

ثُمَّ يَرَى أُخْرَى أَحْسَنَ مِنْهَا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، حَوِّلْنِي إِلَى هَذِهِ آكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا وَأَكُونُ فِي ظِلِّهَا، قَالَ: ثُمَّ يَرَى سَوَادَ النَّاسِ وَيَسْمَعُ كَلامَهُمْ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ"، قَالَ أَبُو نَضْرَةَ: اخْتَلَفَ أَبُو سَعِيدٍ وَرَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، فَيُعْطَى الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا، وَقَالَ الآخَرُ: فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، فَيُعْطَى الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا، قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَكَذَا حَدَّثَنَا أَبُو يَعْلَى وَعَلَى الصِّرَاطِ ثَلاثُ شَجَرَاتٍ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى جَانِبِ الصِّرَاطِ ثَلاثُ شَجَرَاتٍ.

1. قال عبد بن سفيان العقيلي: [يجوز الناس يوم القيامة على الصراط على قدر إيمانهم وأعمالهم فيجوز الرجل كالطرف في السرعة وكالسهم المرمى وكالطائر السريع الطيران وكالفرس الجواد المضمر ويجوز الرجل يعدو عدوا والرجل يمشي مشيا حتى يكون آخر من ينجو يحبو حبوا].

2. قال البغوي في تفسير قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجالٌ)، هِيَ ذَلِكَ السُّورُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَهِيَ جَمْعُ عُرْفٍ وَهُوَ اسْمٌ لِلْمَكَانِ الْمُرْتَفِعِ، وَمِنْهُ عرف الديك لارتفاعه على ما سِوَاهُ مِنْ جَسَدِهِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: سُمِّيَ ذَلِكَ السُّورُ أَعْرَافًا لأَنَّ أَصْحَابَهُ يَعْرِفُونَ النَّاسَ.

3. الروح بعد مغادرتها الجسم لا تنتقل إلى الجنة أو النار مباشرة بل إلى حياة البرزخ. وكلمة البرزخ أصلها فارسي وكان يستعملها العرب للتعبير عن مكان بين مكانين، وقد استعملها القرآن عن مرحلة أو حياة بين حياتين. وفي ذلك يقول تعالى: (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) [سورة المؤمنون: 100] فالبرزخ مرحلة بين الموت ويوم تقوم الساعة.

صراخ وأنين. أما المطهر فمضيئ تشرق به الشمس، ويظهر القمر بالسماء، وحين تتطهر الروح من الخطايا يهتز ويتزلزل، ويرسل صوتا ليعلن انتصار الروح علي مطامع النفس. على النقيض من جهنم، نجد المطهر به الإنشاد والترتيل والترنيم وترتيل أناشيد مقدسة وصلوات وتبدو الملائكة كأطياف تكسوها ألوان البهجة.

وصف المطهر عند دانتي: الفكرة في الأساس مستوحاة من التراث الديني، وتتمحور حول كون الذين لم يتوبوا في الحياة توبة كاملة لا يتم مساواتهم بهؤلاء الذين تابوا في حياتهم، ولا في الآثمين في الجحيم، بل يُمنحون فرصة التكفير عن ذنوبهم في عالم ما بعد الموت، وهكذا بنى "دانتي" تصوره للمطهر، ورسمه على شكل جبل في جزيرة. يختلف "دانتي" عما كان مُعتقد عن المطهر، حيث جعله مستقلا وليس داخل الجحيم أو قريبا منه. وجعل له مقدمة تمثل إعداد وتجهيز لصعود أفاريزه، وهذا يعتمد على تقدير زمن التوبة والتكفير عن الخطايا. وصف "دانتي" المطهر بأنه جبل مرتفع، لا تستطيع النظر إلى قمته، في نصف الكرة الجنوبي، وسط المياه، وترتفع قمة الجبل مسافة تقارب بُعد الأرض عن مركزها، ويصل ارتفاع مقدمة المطهر أعلى من قمة جبل "إفرست"[1] وهو عند "دانتي" نهاية الهواء الأرضي، وهو بلا أسوار أو حواجز تحمي الصاعدين من السقوط إن لم ينتبهوا. المطهر مكان به هدوء وحزن وتحرر من عبء الذكريات الأرضية الذي يقبع أسفله أسرى الجحيم. إن الأمل المنبعث في قلوب الموجودين في المطهر وهم في وسط اللهيب يتلاءم مع مزاجهم المتحمس الذي يؤكده صعودهم

1. (Mount Everest) أعلى جبل على وجه الأرض، حيث يرتفع إلى حوالي 9 كم عن سطح البحر. وهو أحد الجبال التي تتكوّن منها سلاسل جبال "الهملايا"، على حدود الصين.

المستمر إلى أعلى، صوب الجنة.

استمد "دانتي" مادته من الأسطورة والتاريخ، ومن العلم ومظاهر الطبيعة ومن المجتمع، ومن خفايا النفس ومن الدراما الإنسانية ومن الفن ومن الإيمان والأمل والشوق إلى الله. وفي المطهر يتدفق شعر "دانتي" كالماء النمير الصافي، وفيه البهجة والتجلي الشعري بالتقاء "دانتي" و"بياتريتشي" بعد طول فراق، وتحديدا في الأنشودة الثلاثين التي وضعنا لها عنوانا يحمل اسمها نظرا لأهميتها بالنسبة للمؤلف.

يغادر كل من "دانتي" و"فيرجيليو" الجحيم، ويصلان إلى جبل المطهر، ومن هناك يتسلقان إلى شرفات مضيئة فيها الموتى الذين وهبوا الخلاص يبحثون عن الغفران من الخطايا التي اقترفوها على الأرض. ويملأ جو من الأمان والأمل ذلك المكان الخاص بالتطهر، على عكس المعاناة الكبيرة واليأس اللذين مرّ بهما في الجحيم. في البداية نجد شاطئ المطهر، تأتي له نفوس التائبين بقارب مع الملائكة، وبعد هذا باب المطهر، ثم الأفاريز.

المطهر مقسم إلى ثلاثة أقسام — الأدنى والأوسط والأعلى — على سبع أفاريز. المطهر الأدنى وله ثلاثة أفاريز ويحوي بداخله مَن أحبوا حبا منحرفا، ذلك الحب الذي يضر الفرد نفسه وغيره دون أن يُدرك. الإفريز الأول منهم للتكبر: بعد أن مضى الشاعران "دانتي" و"فيرجيليو" للداخل في المطهر، شاهدا صخرة عظيمة، وأخذ "دانتي" يصف روعتها وما نُحت فيها من شخصيات، ثم التقى بالجموع التي كانت تدفع ثمن خطيئتها هنا وهم المتكبرون والمتغطرسون، وعقابهم كان حملهم لأثقال متراوحة الحجم، ومنهم على سبيل المثال "جوليلمو

ألدوبراندسكي"[1]. والإفريز الثاني مخصص للحسد، ويصفه "دانتي" بأنه خال من أي منحوتات أو رسومات، وسمع فيه دعوات مهذبة لمائدة المحبة، ووجود أصوات يرجع السبب فيها طبقا لتفسير "فيرجيليو" إلى توبيخ الحاسدين. أما الإفريز الثالث فهو مُخصص لسريعي الغضب: بعد اجتياز "دانتي" للإفريز الثاني سمع تراتيلا جميلة من أمثال "طوبى للرحماء"، ومرة أخرى شاهد ملاكا، ومن نوره اضطر أن يغطي عينيه مستخدما يده كالمظلة. أما المشهد الذي تمثل أمامه لاحقا كان عبارة عن مجموعة من الناس يرجمون رجلا بلا شفقة، فقام الأخير ورفع نظره للسماء طالبا من الله أن يغفر لقاتليه، ويتبين بأنه القديس "ستيفانو". والمطهر الأوسط ويمثله الإفريز الرابع لمن كان حبهم ناقصا ويصل لدرجة التقصير والتهاون أو الكسالى والمهملين. وكانت الأصوات في هذا الإفريز تتسم بصراخ ممزوج ببكاء. أما المطهر الأعلى فله ثلاثة أفاريز وهو لمن زاد حبهم عن ما يجب أن يكون عليه. الإفريز الخامس ويعني حب المال (البخل) أو العكس (الإفراط والإسراف). ويضم جموع الذين أحبوا امتلاك أشياء دنيوية أكثر مما يلزم وتأخرت توبتهم، أي أن هذه الجموع فيها الجَشِع والبخيل ...إلخ. ومن الشخصيات التاريخية التي حاورها في هذا الإفريز كان البابا "أدريانو الخامس" والذي سيرد ذكره تفصيلا في الأنشودة التاسعة عشرة والتي تحمل عنوان "البخلاء والمسرفون". ثم يحدث زلزال في المطهر! ويتبين بأن ذلك أمر اعتيادي وطبيعي، ويرجع لكون أي روح أحست بأنها طاهرة بما يكفي، وأنها كفرت عن ذنوبها في المطهر ومستعدة لتصعد للسماء، ترد

1. سيأتي ذكره تفصيلا في الأنشودة الحادية عشرة.

عليها السماء بهذه "الصيحة"- أي الزلزال. الإفريز السادس وهو لمن كان عنده آفة النَّهم والشراهة، وعقابهم كان البقاء حول شجرة تُزكي رغبتهم في الأكل، بينما هم يزيدون في فقدان الوزن حتى أصبحت أشكالهم وكأنهم جلد على عظم. ثم تساءل "دانتي" عن خسارة أوزان الأرواح في هذا الإفريز بالرغم من أنهم لا يحتاجون إلى غذاء؟ فينادي "فيرجيليو" الشاعر "استاتيوس" ليشرح له، ويوضح له ماهية الأمر. الإفريز السابع وهو مخصص لشهوة الجسد. وهنا يصف "دانتي" ما شهده، وهو عباره عن نيران خارجة من صخور الجبل، ومن الأخيرة خرجت أصوات ترتل: "يا إلهي يا عظيم الرحمة"[1] و"لستُ أعرف رجلا"[2] – العبارة التي رددتها مريم العذراء عندما علم قومها بأنها حامل. ثم يمضي الشعراء الثلاثة ("دانتي" و"فيرجيليو" و"استاتيوس") إلى الأعلى، ويلامس ملاك "دانتي" وتُمسح خطيئة أخرى،[3] ويشعر "دانتي" بالسعادة لأنه لم يعد يفصل بينه وبين "بياتريتشي" سوى القليل! لكن النعاس مرة أخرى غالب الشعراء، فتوقفوا وراحوا يغطون في النوم، ويرى "دانتي" حلما سعيدا هذه المرة، إذ شاهد فتاة في مقتبل العمر تقطف الزهور وتغني، وقالت بأن اسمها "ليئة" وأن شقيقتها "راحيل" لا تفارق مرآتها، ثم يستيقظ "دانتي" ليجد الشاعران قد استيقظا قبله. بعد هذه المرحلة يخبر "فيرجيليو" "دانتي" بأنه عند هذا

1. وردت في الأبيات 123-121 من الأنشودة 25 التي تحمل عنوان "توالد الجنس البشري".

2. وردت في الأبيات 129-127 من ذات الأنشودة رقم 25.

3. خط الملاك بسيفه سبع خطوط على جبين "دانتي". ترمز هذه الخطوط لأول حرف من كلمة خطيئة بالإيطالية "Peccato" الحرف "P" - وذكره بألا ينسى بأن يمسح هذه الندوب في الداخل. وسنرى في متن القصائد هذه التفاصيل، وخاصة الأنشودة التاسعة التي تتضمن مزيدا من التوضيح والتفسير لهذه الخطوط والخطايا.

الحد ينتهي المشوار الذي يجمعهما. ومع هذا، يبقى "فيرجيليو" مع "دانتي" بالرغم من هذا الوداع حتى يلتقي "بياتريتشي" في الأنشودة الثلاثين لتستمر معه.

يوجد تناسق بين تلك الأفاريز، فأولا نجد العقاب المناسب للذنوب، ويكون بتحمل نتيجة هذا بصبر، والقيام بالفضائل التي هي على النقيض من الذنب لتطهير النفس من مطامعها، وثانيا التأمل والتدبر والعظة من حياة الصالحين كقصة السيدة مريم العذراء، وأيضا من تاريخ الأمم السابقة. وثالثا يُبني التطهر على الصلاة المأخوذة من العهد القديم. ورابعا بالتبرك الذي يؤخذ من طوباويات الكتاب المقدس، خامسا نجد الملاك حارس الإفريز يتلقى أرواح التائبين، ويمحو عنهم الخطايا. وفي النهاية يأتي الفردوس الأرضي فوق قمة جبل المطهر.

وكما كانت بداية رحلة "دانتي" في غابة مظلمة تثير الخوف، فهو في هذا الجزء في مكان مخالف تماما، فهو الآن في غابة المطهر، وهي غابة رائعة يتخلل أغصانها الهواء العليل، ويُسمع بها تغريد الطيور، وينساب فيها صوت جداول المياه العذبة.

والفردوس الأرضي مكان الإنسان قبل الوقوع في الخطيئة، ومكانه بعد التطهر والرجوع إلى نقاء وطهارة روحه. ومع هذا فإن الطهارة التي يعود إليها الإنسان ليست كسابقتها، فإن الندم على الذنوب يكسب نقاءً ورُقيًا للروح، وبعدها الاغتسال من نهر النسيان والشرب من ماء "إينووي"[1] لتهيئ الأرواح للعروج صوب السماوات العليا.

ومع ذلك نرى "دانتي" قد حول ما ذكره من شعر في المطهر لفن رفيع.

1. نهر يذكر البشر بالأعمال الصالحة وسيرد ذكره في الأنشودة الثامنة والعشرين من هذا الجزء.

فنجد أنه جعل "ماركو لومباردو"، يقول إن النفس البشرية تبعث من عند خالقها على سجيتها، وتكون على الفطرة لكنها تتغير مما تراه في العالم.

ونجد "دانتي" رسم لنا على المرمر الأبيض حفرا بديعا يصور به جبريل وقد أتى إلى السيدة مريم العذراء يبشرها بميلاد المسيح (عليه السلام)، وكذا رسم لنا قصة الملك داود بذات الموضع. كما نرى الثيران تجر العربة التي تحمل التابوت المقدس. والجمع الذي أحاط بالعربة قد تحركت شفاهُ أفراده وهم يرتلون آياتٍ من العهد القديم، والدخان يتصاعد، حتى كأنه يتنسم رائحته الطيبة. وكذا رسم لنا "دانتي" على المرمر قصة "تراجان" والأرملة الرومانية الثكلى التي سترد تفاصيلها في الأنشودة العاشرة.

في المطهر توجد مادة وافية من التشبيهات والاستعارات والمجازات والصور التي تسهم في بناء عالمه الرفيع، فنجد صورة السماء يسودها اللون اللازوردي الصافي، ومياه البحر حينما تكسوه أنوار الفجر، وكذا قطرة الندى مع أشعة الشمس وتزاحم الناس حول الرسول الذي يحمل غصن الزيتون لكي يسمعوا منه أنباء السلام، والبرج الثابت الذي لا تهتز قمّتُه بعصف الرياح أبدا، والأزهار بألوانها الزاهية وشذاها العَطِر، وإحساس المسافر في البحر لأول مرة بالحنين إلى وطنه، والمتكبرين الذين ساروا وقد حنيت ظهورهم بالأحجار الثقيلة، والقديس الذي يجود بأنفاسه الأخيرة وهو يسأل الله المغفرة لقاتليه رجما بالحجارة، والوهج الشديد الذي يغشى الأبصار، ودهشة سكان الجبل حين يدخلون المدينة للوهلة الأولي، والطيور التي تغرد على الأغصان، ومشاعل النار تدفعها الهواء، والقبطان ينظر إلى سفينته ويبعث الهمة في رجاله ليقوم

كل واحد منهم بكل ما يمكنه، فسفينتهم وسط عاصفة هوجاء، وصاحب النفس الرقيقة التي تتلمس المعذرة. تلك هي بعض الصور والتشبيهات التي استخدمها "دانتي"، ومزج بعضها بين الأسطورة والتاريخ، والواقع والخيال، وبين العلم والفن، وبين الدنيا والآخرة. وهذه الصور الجمالية التي ترسم وتصيغ خيال القارئ بالطبع سنراها تفصيلا بين ثنايا المطهر الذي بين أيدينا. وهكذا كونت الكوميديا نسيجا متألقا بجميع العناصر والجزئيات المتناسقة. وتوفرت معالم ومراحل الصعود والهبوط ببلاغة، فالمطهر متبدل تبعا لما تقتضيه الحال.

ولو ذهبنا للفنون التشكيلية لوجدنا شعر الجحيم يتقارب من روح وفن "جوتو"[1] المعاصر لـ"دانتي"، التي تعبر صوره عن المكنون من خلال نظرة الأعين، ويشير مظهرها عند "مايكل أنجلو"[2]، للقوة والضخامة والتطلع نحو بناء عالم جديد. أما في المطهر تظهر الصورة العامة لآثار

1. جوتّو دي بوندوني "Giotto di Bondone" المعروف باختصار "جوتّو" ("فلورنسا" سنة 1266 - "فلورنسا" سنة 1337). رسام ومهندس معماري إيطالي. يعتبر عموما من كبار الفنانين الذين ساهموا في النهضة الإيطالية. خلّف تأثيراً كبيراً في فناني الأجيال القليلة التي جاءت من بعده، وكانوا يرسمون أعمالاً رائعة للفترة التي عُرفت بعصر النهضة. كشف "جوتّو" أسس التصوير الحديث لعصر النهضة وأكسب الأشخاص في تصويره حيوية ومظهرا فوق ما أضفاه من خيال على مختلف المناظر التي رسمها. وما رسمه من لوحات الفرسك (الصور الجدارية) ذات الطابع الديني يؤكد نبوغه وقدراته على إظهار تفاصيل الأشياء والأبعاد والظلال والأضواء فوق ما يشع منها من أحاسيس عاطفية تحملها تعبيرات الوجوه والأيدي وحركات الأشخاص ومن أمثلة ذلك اللوحة التفصيلية – مقابلة عند البوابة الذهبية – في مدينة "بادوفا" وكذلك في لوحة – البكاء على القديس "فرانسيس".

2. رسام ونحات ومهندس وشاعر إيطالي، كان لإنجازاته الفنية الأثر الأكبر على محور الفنون ضمن عصره وخلال المراحل الفنية الأوروبية اللاحقة. اعتبر أن جسد الإنسان العاري الموضوع الأساسي للفن مما دفعه لدراسة أوضاع الجسد وتحركاته ضمن البيئات المختلفة. حتى أن جميع فنونه المعمارية كانت ولابد أن تحتوي على شكل إنساني من خلال نافذة، جدار، أو باب.

"بيرودجينو"[1]، لاسيما من أشعة الفجر أو سقوط قطرات الندى على العشب والأزهار.

أما من جانب الموسيقى يمكن القول أن "دانتي" اقترب في الجحيم من روح "لودفيج فان بيتهوفن"[2]، بما تحوي موسيقاه بين الرقة والعنف، وربما يقترب شعر الجحيم كذلك من روح "ريتشارد فاجنر"[3] الغنائي الدرامي. أما في المطهر فهناك تقارب مع نواحي متباينة، من ألحان "التروبادور" بتعبيره البسيط عن مشاعر الناس، وكذلك من الألحان الجريجورية[4]، وأيضا روح "بالسترينا"[5] وغيرهم، لما تحويه ألحانهم من عناصر الشجن، والرقة واللطف، والسمو والتجريد، والخشوع والابتهال، والإيمان والرجاء، والشوق لله.

المطهر سيمفونية رائعة أو مسرح كبير فريد من نوعه يصور لنا عالم متنوع بالمشاهد والألحان. والفنون مع تنوعها واختلاف أدواتها، تتناغم وتلتقي مع بعضها وترمي بظلالها على الفنون الأخرى وهو ما يساهم

1. بيترو بيرودجينو "Pietro Perugino" (تقريباً 1446/1450-1523). من رسامي عصر النهضة الإيطالية من المدرسة الأومبريانية. وضع بعض الصفات التي أوجدت التعبير الكلاسيكي في عصر النهضة العليا.

2. (Ludwig van Beethoven) (1770-1827) كان ملحن وعازف بيانو ألماني، وهوَ أحدُ الشخصيّات البارزة في الحقبة الكلاسيكيّة التي تَسبِق الرومانسيّة؛ ويُعتَبرُ من أعظَم عباقرة الموسيقى في جميعِ العصور وأكثَرهُم تأثيراً، وأبدَع أعمالاً موسيقيّة خالِدة، كما له الفضلُ الأعظم في تطوير الموسيقى الكلاسيكيّة.

3. (Richard Wagner)(1813-1883) مؤلف موسيقى وكاتب مسرحي ألماني. باختصار شديد يمكننا القول أن النصف الأول من العصر الرومانسي في الموسيقى سيطر عليه "بيتهوفن"، والنصف الثاني "ريتشارد فاجنر".

4. (Gregorian Chant) من أكثر الممارسات الدينية السائدة عبر العالم وخلال القرون كانت ترتيل نصوص دينية لألحان بسيطة مع إيقاعات تنسخ إيقاعات النص كما يجب التكلم بها. هذا النوع من الغناء الذي يؤدي في جماعة ودون مصاحبة لآلات موسيقية يعرف بالغناء البسيط والترتيل البسيط أو ببساطة "ترتيل".

5. (Giovanni Pierluigi da Palestrina) (1525/1526-1594) مؤلف موسيقى من عصر النهضة. له أثر مستمر على تطور موسيقى الكنيسة حتى يومنا هذا.

في تحقيق العلم والمعرفة والإحساس، وقد ينير بالعقل والقلب نورا ليصل للإبداع البشري.

ومضات دانتية أخرى: وقد علمنا فيما سبق حياة "دانتي" ومعاناته وما لاقاه من حياة المنفى والتي ترسم حياة رجل متوسط الحال، كان يمكن أن يحقق كل ما يرغب. لم يكن "دانتي" أنانيا ولا متطلعا ولم يهو السلطان والثروة. فقد كان هادئا متأملا قليل الحديث، وعاشقا وصاحب حس مرهف، وكان أيضا يوصف بالمترفع والمتواضع في آن واحد، وكان أيضا الساخط على عالمه غير العادل. ليس هذا فحسب، بل كان الوطني الشجاع، ولشدة حبه للناس لم يتمكن من الصمت عن أخطائهم، وهو عندما لم يستطع تغيير قومه إلى الأفضل، ولم يتمكن من مجاراة الظروف، لقي ما لقاه من النفي والحرمان من العودة لوطنه، فهو من الرجال الذين يولدون والحظ العسر يلاحقهم. ولا يدرك الناس قدرهم الحقيقي. أما "دانتي" الكهل الناضج، فكان خلال وحدته منشغلا بالدرس والعلم، وخلال كتابة "الكوميديا"، مستفيدا من تجاربه، ومعرفة البشر، فكان البشر عنده كالكتاب الذي يقلب أوراقه ويكشف خباياها، وداخل أعماقه تكونت المعاني والمشاعر، وبقيت خافيه وانصهرت بداخله، وباتت الطعنات التي لم تقتله تدفعه وتقويه. فظل شامخا لا تحنيه العواصف، فجعلته الصعاب والضغوط والمحن مثل الماس وتلك الجواهر النفيسة.

وقد يعتقد البعض تحول جوهره مع عوالم الكوميديا الثلاث، والحقيقة أن شخصية "دانتي" لا تتغير ولا تتبدل فقد بقي على سجيته وبراءته وعمق مشاعره وصدق إحساسه، مهما تغير الزمان، فكان جوهره واضحا وثابتا على عكس الكثيرين. كان يرتوي ويستنير، ليزداد صقلا

ولم تكن آراءه متباينة، فلم يتلون مع الظروف. أما إذا تحدثنا عن "دانتي" الرحالة فقد حدثت له بعض الاختلافات، بيد أن النواحي الرئيسية فيه ظلت لا تتبدل، فنجده بالمطهر يرجع لـ"دانتي" الرحال داخل جهنم عندما يلعن بلاده حينما كانت ممزقه ويسودها الفساد، وكذلك نجد "دانتي" هنا حين شاهد المتكبرين وهم يسيرون يحملون أثقالا، وكأنه هنا قد عرفها في نفسه.

"فيرجيليو" — الدور والشخصية: في الجزء الأول ونظرا لطول المقدمة التي سبقته، لم أتطرق بالحديث تفصيلا عن الشخصية الثانية من حيث الأهمية في "الكوميديا الإلهية، ألا وهي "فيرجيليو"، لكن أما وقد سنحت المساحة والتوقيت بذلك، فإنه لحري بنا أن نستعرض بعضا من الملامح الهامة في حياة هذا الرجل، الذي كان ملهما ومرشدا وقائدا وأيضا قدوة بالنسبة لـ"دانتي". ففهمنا لطبيعة شخصيته حتما سيؤدي بنا إلى الإدراك الصحيح لشخصية "دانتي". كان "فيرجيليو" يعيش في القرن الأول ق.م. وتربى بريف "مانتوفا" شمال إيطاليا. وتعلم في "ميلانو" وفي "روما". نشأ محبا للطبيعة وللدراسة. كان يفضل التأمل بعيدا عن الضوضاء والضجيج. ومع ذلك كان محبا للبشر فكان يتأملهم وهو تسوده روح البهجة والتطلع إلى فهم أسرار الحياة. كان رقيق المشاعر، نقي الروح وكان ينسج مظاهر الحياة الإعتيادية للناس بروعة وجمال. فالفلاحة تحمل جرتها، والفلاح يربي الحيوانات أو يجمع العسل، والراعي هناك يرعى ماشيته ويعزف على النّاي، والكون الفسيح، والناس على اختلاف ألوانهم ولغاتهم، كل ذلك جذب محبته، ومع عدم حبه للسياسة فقد صار شاعر الإمبراطورية الرومانية، وأصبح له اسم ومكانة بالعصور الوسطى، وتحدث في "أناشيد الرعاة"

عن ميلاد المخلص فأسماه أهل العصر الوسيط بالعراف وتناول في "الإنيادة" حياة البشر، وتحدث عن الأساطير ولقد أثر شعره الرقيق في المدرسة "الفلورنسية" الحديثة بالقرن الثاني والثالث عشر.

درس "دانتي" حياة "فيرجيليو" وشعره، وأخذ عنه الكثير، وخاصة دقة التعبير. اتخذ "دانتي" من "فيرجيليو دليلا ومرشدا بالجحيم وفي أغلب المطهر. والمعاني التي يمكن أن يرمز إليها "فيرجيليو" معاني بالغة العمق، ومع هذا كانت سهلة الفهم. فكان "فيرجيليو" يرمز للإنسان أو العقل الطبيعي المتكامل، إلا أنه عاش ومات رومانيًا وثنيًا.

يرمز "فيرجيليو" إلى الأخلاق كما يفهمها البشر بأبهى صورها من اعتدال وتعقل ورصانة الفكر وحسن التصرف وقيام بالواجب، وهي تنبع من أربع فضائل: العدل والبصيرة والعفة وقوه العزم. لذا كان يعبر عن الإنسانية وقيمها النبيلة، ويقدس الآلهة والعالم الوثني الأسطوري ولذلك اختاره "دانتي" ليرمز للمعاني كما يحبها. نجدنا حين نسمع تعبيرات "فيرجيليو" تجذبنا نحوه، بما يتحدث به من إنسانية وحياة عادلة يحلم بها.

كان "فيرجيليو" ذا جبهة عريضة، تشير كل المعلومات والمدلولات إلى بساطته ولطفه وعظيم تواضعه. فقد جعله "دانتي" بمكانة الأب له أو الأم التي ترعى صغيرها. فكانا أجمل صورة لصديقان تراهما عين أو تسمعهما أذن. فكثيرا ما يقال على شخص أنه صديق ورفيق! ولكن ليس كل جليس ورفيق صديق. ولا يعد بصديق من يرجو من لقائك التسلية أو المنفعة فقط. فالصديق الحقيقي هو الذي يقدم لصاحبه كل ما لديه ويؤثره على نفسه، والصديقان المحبان هما من يعرف أحدهما بما يفكر به صديقه دون حديث. ويصبح كل منهما صورة للآخر تشع

حبا وصدقا. وهذا ما لمسناه بين "دانتي" و"فيرجيليو" في "الجحيم" وسنلمسه أيضا في المطهر.

كما رأينا في الجزء الأول، قدم "فيرجيليو" من "اللمبو" ملبيا طلب "بياتريتشي"، حتى ينقذ "دانتي" من الوحوش بالغابة المظلمة، وبافعل أنقذه من تلك الوحوش، ومضى به داخل حلقات الجحيم ليحميه من المخاطر، ويبعد عنه الظنون وينهي حيرته، ويذلل له كل ما شق عليه، ويحمله حين لم يتمكن من السير، ويوضح له ما خفى عليه، ويحثه على المضي قدما في طريقه. وفي أوقات أخرى كان يوجه لـ"دانتي" اللوم لتأخره ويلومه لوم الأحبة.

داخل الجحيم كان "فيرجيليو" يعلم كل خطوة يخطوها وحينما يقف أمامه شيء كانت هناك قوة من السماء تساعده على تخطيها، مثلما صار أمام مدينة "ديس"، حين ساعدهم الملاك، وقام بطرد الشياطين وفتح لهما باب المدينة، وكانت تلك إشارة أننا في حاجة دائمة لعون من الله ليرشدنا وييسر طريقنا بفضله علينا.

قد يعتقد البعض أن هناك تناقض بين مكانة "فيرجيليو" بالنسبة لـ"دانتي" وبين الموقع الذي اختاره له في "اللمبو"، ولكن هذا لا يتنافي مع مبادئه ومعتقداته، ومع ذلك كان يحبه ويحترمه ويثني عليه، لذا نجده أيضا قد وضع "سورديلُّو"[1] و"استاتيوس"[2] في المطهر، مع أن ما

1. (Sordello) أحد شعراء "التروبادور" وقد ولد في عام 1200 م. سيرد ذكره والحديث عنه تفصيلا في الأنشودة السادسة. عُرف بمغامراته النسائية، ويقال إنه كان سبا مباشرا في التفرقة بين الكونت ريتزاردو دي سان بونيفاتشو "Rizzardo di San Bonifaccio" في فيرونا وزوجته كونيتزا دا رومانو "Conizza da Romano" ومكانها في الفردوس، أي الجزء الثالث من الكوميديا الإلهية.

2. اسمه الكامل بوبليوس بابينيوس استاتيوس "Publius Papinius Statius" وهو شاعر روماني ولد في سنة 45 م. سيرد ذكره تفصيلا في الأنشودة الحادية والعشرين وما بعدها.

كتباه لا يذكر مقارنة بما كتبه "فيرجيليو". كان "فيرجيليو" يرمز إلى العقل، الذي لا يمكنه وحده أن يصل إلى السعادة، التي لا تتم دون الإيمان بالخالق. داخل الجحيم كان "فيرجيليو" صاحب قوة وسلطان، أما داخل المطهر فكان العالم غريب عليه، ومع أنه كان يقوم بدور المرشد لـ"دانتي" في المطهر أيضا، إلا أنه لم يكن بنفس الثقة التي كانت له قبلا، ومع ذلك فإنه يصبح أكثر تأثيرا وتألقا.

بالأنشودة الأولى اقترب "فيرجيليو" من حارس المطهر، وتحدث معه ليسهل لهما عبور الطريق. فأخبره أن يمضيا في طريقهما. وعندما يسير الشاعران ليصعدا الجبل، وحين لا يشاهد "دانتي" ظلّه على الأرض كان يخاف، فيطمئنه "فيرجيليو"، أنه معه ليرشده ويساعده، ومن ثم لا داعي للقلق. كلما صعد الشاعران على جبل المطهر مزيدا، زادت الأرواح وزاد "فيرجيليو" معهم لطفا وتهذيبا وحين التقيا "استاتيوس" وشكلوا ثلاثيا فريدا ورائعا لشعراء ساد بينهم التقدير والتوافق والمحبة، ومع هذا كان "فيرجيليو" البارز بينهم.

علاوة على كل ما سبق، كان "فيرجيليو" يقوم بتفسير بعض الظواهر الفلكية لـ"دانتي" في الإفريز الثاني، عن حركة الشمس حيث تظهر الشمس بالنصف الكرة الشمالي من اليسار إلى اليمين، في حين يبدو العكس في النصف الآخر، وكذا عند الإفريز الرابع، وأخذ يشرح لـ"دانتي" معنى المحبة، فتكلم عن المحبة الطبيعية التي لا تخطئ، وعن المحبة الإختيارية التي تتعرض للخطأ، وقسم المعارف الأولى والرغبات الأولية الغريزية لدى الإنسان كغريزة النحل في صنع العسل. كان "فيرجيليو" بمثابة من يحمل مصباحا لينير الدرب لمن يخلفه، ويأتي من بعده، ولكنه لم يتمكن من إنارة الطريق لنفسه. كان "فيرجيليو" يزداد لطفا كلما

اقترب موعد رحيله عن "دانتي" ليتركه مع "بياتريتشي" في الفردوس الأرضي. وفجأة تحين لحظة الفراق من غير أن يدركها "دانتي" ولا يبوح "فيرجيليو" بها لـ"دانتي" فنجده ينسحب بهدوء دون توديعه، بل ودون أن ينتظر كلمة شكر واحدة نظير كل ما قدمه وفعله من أجل "دانتي". حين يشعر "دانتي" وهو أمام "بياتريتشي" بعدم وجود "فيرجيليو" يحزن ويبكي، فهو نفس صافية رقيقة حزنت على فراق نفس صافية.

جعل "دانتي" من "فيرجيليو" عنصرا رئيسا في بداية رحلته إلى "الجحيم" ثم في المطهر، ثم اختفى بعد دخوله الفردوس الأرضي، وحلَّ محله ظهور "بياتريتشي" والذي أظهره "دانتي" بمهابة ونور، والموقف الدرامي الذي نشأ بينهما، كان الهدف منه تخفيف أثر اختفاء "فيرجيليو"، لذلك لم يؤثر اختفاء "فيرجيليو" بشكل سلبي على الكوميديا، وأكملت مسيرتها المرسومة لها متدفقة تشع منها النغمات وأبيات الفن الرفيع كما سنرى بين ثنايا أبيات الأنشودات الثلاثة والثلاثين المشكلين للمطهر.

"بياتريتشي": تعتبر من أهم عناصر الكوميديا، ونجدها داخل الكوميديا بصور متنوعة، مستترة أحيانا، وواضحة غير متخفية أحيانا أخرى تبعث من يساعد "دانتي" أو تساعده بنفسها، يصفها تارة على أنها بشر، وتارة أخرى على أنها ملاك من نور يأتي من السماء لينير طريقه.

سواء كانت واقعا أو خيالا، من هي؟ وماذا تعني بالنسبة لـ"دانتي"؟

هي ابنة "فولكو يورتيناي"، وجيه من وجهاء "فلورنسا"، عاشت وترعرعت هناك في نهاية القرن الثالث عشر، عاشت بقصر والدها هناك، وكان بالقرب من شارع "سانتا مرجريتا". أحبها "دانتي" كثيرا، ولكنها لم تبادله نفس الشعور. وتزوجت من "سيمون دي بادي" الغني، ثم خطفها الموت في ريعان شبابها.

كان تأثيرها على "دانتي" واسع المدى، فكانت هي بمثابة ملهمته والوحي الذي يستلهم منه الطريق، فامتلكت مشاعره وإحساسه، فكان نظمه للكوميديا مستمدا مما رأى وشاهد خلال حياته، التي كانت هي جزء منها. كانت "بياتريتشي" بالنسبة لـ"دانتي" امرأة وفكرا ورمزا في آنٍ واحد. رآها في طفولته وشبابه. لم تدرك قدر "دانتي" ولم تهتم به، حين أحبها في طفولته. كان حبه لها حب رجل شاعر، إذ أضفى عليها حسه وخياله الذي جعله يخرج بها من الواقع نحو الخيال وشكل صورة لها، ورجع بتلك الصورة من خلال الكوميديا للواقع. حتى عندما توفت، لم تكن هذه هي نهاية حبه لها، فقد أحس حينها أن "فلورنسا" كلها أصبحت ثكلى، وبكت الشمس عليها والنجوم، وتزلزلت الأرض من حوله. وتبقى الذكريات، ومع الوقت تتلاشى الذكريات مع الزمن مع مشاغل الحياة غير أننا حين نرى أو نقوم بشيء تعودنا رؤيته والقيام به مع من فارقناه ككتاب أو قفاز أو أغراض أو حينما نسمع لحنا، تأتي لنا ذكريات من أحببناهم فتشعرنا بالشجن. فموتها أصاب "دانتي" بحزن شديد حتى أصابه المرض ولم تُجدْ مواساة الناس له فموتها ترك حزنا عميقا داخله فشعر أنها لم تكن مخلوقا يعيش على الأرض فقد تجاوزت الحدود، وانطلقت نحو السماء فأصبحت ملكا لروحه وعقله، فأمكنه حينها أن يحبها كما يشاء دون خوف فأدى كل ذلك لنضج عبقريته بعد هذا الثمن الغالي؟

ورغم هذا كانت بحياة "دانتي" العديد من النساء، لكنه جعل منها رمزا عاليا خفاقا في السماء، فهذه غالبا ما تكون حياة الشعراء ... لا تخلو من حب! لقد عاش بالمجتمع الفلورنسي، وخاض الكثير من

التجارب وتزوج زواجا تقليديا من "جيما دوناتي"[1] ورزق منها بثلاثة أطفال، وعاشوا كأسرة عشرة أعوام لم يذكر شيئا عن تلك الفترة من عمره. بقيت "بياتريتشي" تمثل معنى الحب الحقيقي لدى "دانتي" فهي عنده مثال الفضيلة، تحمل له النور والمحبة والتسامح.

الصور الرمزية المتجلية في شخصية "بياتريتشي" مستمدة من أصول وظروف سابقة موجودة في شعر شعراء "التروبادور"، الذي نشأ بجنوب "فرنسا" بالقرن الثاني عشر، تأثرت تلك المنطقة على مر ألفي سنه بثقافات مختلفة فينيقية ويونانية ورومانية، كما كانت طريقا تجاريا، وكان للأدب الأندلسي بما يحتويه من أسلوب ولشعره وما يحويه من أوزان تأثيرا فعالا على تطور الأدب. يظهر هذا فيما كتبه ابن حزم عن الحب الصوفي، وعن الإخلاص في الحب ونتج عن هذا ظهور شعراء "التروفير"[2] الذين صاروا على نفس الدرب. في حين فشلت الحروب الصليبية، فقد تأثر الأوروبيون بحضارة المشرق، وبدأت حسن التصرفات تحل مكان الفظاظة، واحتلت المرأة مكانا مهما وقتها، فظهرت السيدات المثقفات، وصار للشعر والموسيقي والغناء مكانة مرموقة عند الناس. وقد أثر أدب "التروبادور" وأدب الفروسية في الأدب الإيطالي الوليد في لهجاتٍ المحلية، كذا في مدرسة صقلية في

1. تحدثنا عنها تفصيلا في مقدمة الجزء الأول "الجحيم".

2. تسمية كانت تُطلق على الشعراء الغنائيين الذين كانوا يكتبون أشعارهم بلغة شمال فرنسا وذلك في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وعلى العكس من شعراء "التروبادور" الذين سبق ذكرهم في مقدمة "الجحيم" الذين لم يهتموا بتدوين قصائدهم، ولم يتبق من أعمالهم أي مخطوطة أصلية، فإن غالبية أشعار "التروفير" وأغانيهم التي بقيت حتى اليوم (نحو ألفي أغنية) مدّونة وتحمل اسم مؤلفها.

من "فردريك الثاني"[1] ظهر "بييرو دا لافينيا"[2] الذي يقول إن الحب كالمغناطيس وإن سلطانه كسلطان الملوك، وكذا في المدرسة الفلورنسية نجد "جويدو جوينتزلي" يتأمل جمال الحبيب، وقد قال أن الحب يتجه للقلب النبيل كما الطيور لموطنها وإن المرأة تتأثر بالحب في قلب الرجل النقي الصافي. ف"بياتريتشي" في المعنى الرمزي مستمدة عند "دانتي" من الكتاب المقدس كذلك. فقد نُظر لها على أنها رمز للسيدة العذراء، ويرى بعض الباحثين أنها ترمز إلى الكنيسة، التي ترشد الناس نحو طريق الحق ويراها البعض رمزا للإيمان الصوفي.

كانت الصورة التي وضعها ل"بياتريتشي" نتيجة متناقضة ومغايرة للأوضاع القاسية التي عاشها، فحاول "دانتي" من خلالها أن يخرج من ظلام الواقع ليبحر في العالم الذي طالما حلم به، عالم من الحب النقي والصفاء. ووجدنا أنه حين ضل "دانتي" طريقه في الغابة المظلمة أشارت العذراء إلى "لوتشيا"[3] لتدفع "بياتريتشي" لإنقاذ من أخلص لها الحب، فاتجهت نحو "فيرجيليو" وطلبت منه الذهاب إلى "دانتي" لمساعدته وحمايته من الشرور وقد كانت هي الهدف السامي الذي يسعى نحوه، ليتمكن من مواصلة طريقه الشاق.

1. (Federico II.)(1194 - 1250) إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1220-1250) ملك صقلية (1198-1250) من سلالة "هوهنشتاوفن". تميز عهده بالصراع مع البابوية من أجل السيطرة على إيطاليا. قاد الحملة الصليبية السادسة (1228-1229) توج نفسه ملكا على القدس عام 1229. حكم "فردريك الثاني" مملكة صقلية حكمًا جيدًا، وأسس جامعة "نابولي" عام 1224م وجعل من جامعة "ساليرنو" أفضل مدرسة طب في أوروبا، وكان طوال حياته على خلاف مع البابوات والمدن الناهضة في ألمانيا وإيطاليا. وقد أعجب "فردريك الثاني" بالثقافة العربية الإسلامية وشجع دراستها والترجمة منها. وأصبحت صقلية في عهده مركزًا هامًا لانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا. أغضب اهتمامه هذا رجال الدين فاتهموه بالهرطقة أو الخروج عن الدين.

2. شاعر إيطالي من "لافينيا".

3. (Lucia) دلت "دانتي" على طريق الصعود إلى جبل المطهر، وسيرد ذكرها في الأنشودة التاسعة.

نسج "دانتي" الفردوس الأرضي وجعله نهاية الحياة على الأرض، تهيئة الصعود نحو فردوس السماء التي يبقى بها المتطهرون ليتأملوا قبل الصعود إلى السماء. ونجد بالفردوس الأرضي "ماتيلدا"[1] وسط الربيع الدائم، بطيوره وأزهاره وموسيقاه لينبئ بما هو قادم كمرحلة جديدة أفضل.

يفتح باب السماء، ويهبط موكب جامع للمعاني الواقعية والبشرية. يتكون الموكب من عربة الكنيسة، ليصبح هذا تمهيدا ليشمل عناصر متنوعة، من الواقع والرمز، من السماء والأرض. ممهدا لظهور "بياتريتشي" في الفردوس الأرضي. فكان مشهدا مبهرا مهيبا، فظهرت فوق العربة الظافرة، وحولها الأزهار، ولم يكن "دانتي" مدركا لظهورها من أول لحظه بعد أن أخفت وجهها في بدء الأمر، ولكن قلبه شعر بها، فأحس بسلطان قوي لحبه القديم. وكانت هذه كلمات صادقه تهز القلب. قبل قدومها، كانت تساعده من بعيد أما الآن فنراها أتت له بنفسها، وربما يدهش القارئ حين يجدها حين تقابله ولا تلقاه بالترحاب، الذي كان ينتظره، بل وجهت له اللوم والعتاب وعندما التفت حوله ولم يجد "فيرجيليو" بكى لفراقه، فتخبره أن هناك أمور أخرى يجب أن يقلق بشأنها ليدرك أنه مازال في أول الرحلة ومضت تذكر له معونتها له في الدنيا فصار بسببها نحو الطريق القويم، وحينما فارقت الحياة وارتقت إلى السماء، انحرف عن الطريق الصحيح. كان موقفها نحوه عاملا مؤثرا في تأثر قلوب الملائكة لحاله، وحينها شعر "دانتي" في تلك اللحظة بالخجل مما قام به من معاصي، وانهمرت الدموع من عينيه، فقالت له "بياتريتشي" إنه كان ينبغي عليه أن يسمو، وما

1. (Matilda) سيرد ذكرها تفصيلا في الأنشودة الثامنة والعشرين وما بعدها.

كان عليه السير وراء الباطل. فكان وقْع كلماتها عليه مثل السيف ومع هذا هي لم تقصد هذا، فقد كانت مُحبة له وتهدف إلى بلوغه الصفاء، ليرتفع نحو السماوات العالية. وعندما أفاق "دانتي"، وجد نفسه في نهر "ليتي"، ليطهر من ذنوبه ثم خرج، وتقدم نحو "بياتريتشي"، وهنا تبين جمال "بياتريتشي" الأخاذ والرائع. ووجد رسوما تشير لما عانته الكنيسة من ظلم أباطرة الرومان، وغياب الأخلاق. قامت"بياتريتشي" وجعلت "دانتي" يتقدم معها، وأخبرته أنه سوف يأتي زمان يظهر رسول من السماء لينشر الخير ويقضي على فساد العالم[1]. وقامت بالإشراف على شربه من نهر "إينووي"، فعادت لروحه الأعمال الحسنة فصار كمن يولد من جديد، وأصبح نقيا ليتمكن من الصعود للسماوات العالية.
كانت "بياتريتشي" بالنسبة لـ"دانتي" من تلهمه وتدلُّه على الدرب وتسقه من ينبوع حبها ليكتب لنا رائعته الشعرية، الذي تنقيه من كل ما يشوبه لترقيه وتسمو بروحه، وأيضا كانت تشرح له كل ما خفى عليه ليفهم كل ما لم يتمكن من إدراكه. لذا اكتسب "دانتي" الخبرة، وعلم الكثير عن خفايا النفس وظهرت فرحة "دانتي" بلقائها كصورة تجمع بين الواقعية والخيال، فكانت تتقارب وتتباعد، وتمتزج مثل أنغام الموسيقى العذبة المرهفة.
وختاما: لا نملك إلا أن نقول أننا في هذه المقدمة — وفي سالفتها بالجزء الأول من الكوميديا الإلهية — قد عرضنا رأينا وأدلينا بأفكارنا بوضوح في هذا الموضوع لعلنا نكون قد وُفِّقنا في كتابته والتعبير عنه، وقبل كل هذا في ترجمة أشعار "دانتي" الفريدة وكذا شرحها، وبالطبع

1. المقصود بهذا الرسول هو الإمبراطور "هنري السابع".

ما نحن إلا بشر قد نخطئ وقد نصيب، فإن كنا قد أخطأنا فنرجو مسامحتنا، وإن كنا فد أصبنا فهذا كل ما نرجوه من الله عز وجل. والآن اسمح لنا — أيها القارئ النبيل — أن نتركك لتتصفح الجزء الثاني من كوميديا "دانتي"، وتحاول جاهدا أن تُكمل من هذه الصورة البديعة ثلثها الثاني، والتي نتمنى أن تكتمل لديك بعد قراءة فصلها الأخير المتمثل في "الفردوس".

القاهرة في 11 ديسمبر 2017.

المترجمان

د. عبدالله عبدالعاطي النجار – عصام السيد علي